المبحث الرابع

أيها الماديون:
هل عندكم من علم فتخرجوه لنا..؟!

قال لصاحبه وهو يحاوره: أتذكر يوم أن حدثتك عن ليلة طيبة من الليالي التي قضيتها في أحضان الجبال. لقد جلست وحيداً في تلك الليلة[1] وجعلت أنظر إلى الجبال وإلى السماء، وكأني بالجبال تقول لي في إباء وشموخ: ها أنا ذا آية من آيات ربك تقف أمامي مبهوراً لا تستطيع أن تنال مني شيئاً فتأمل ما شئت ثم تفكر ما شئت أيضاً ولسوف تهتف من أعماق قلبك ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك!

وكأني بالسماء تسألني: من الذي رفعني بغير عمد تراها؟ من الذي جعل لي هذه الزينة من مصابيح هي الكواكب؟ من الذي جعلني سقفًا محفوظًا هكذا؟ من الذي ذهب بذلك النهار المؤنس المضيء وجاء بهذا الليل الموحش المظلم حتى قالوا في الأمثال: الليل أخفى للويل؟ من الذي جعل البحر الذي يقع على بُعد كيلو مترات منك ملحًا

(١) كان ذلك في عام ١٩٧٣م حينما كنت مجندًا بالقوات المسلحة حيث كنت أعمل طبيبًا للفوج السادس من قوات حرس الحدود. وكان موقعه بين أحضان بعض الجبال الشاهقة من سلسلة جبال البحر الأحمر القريبة من مدينة «سفاجا» التي تقع على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ولا يمكن لمن يسير على الطريق العام: طريق قنا - سفاجا أن يتعرف عليه إلا بدليل يعرف المنطقة جيدًا. وكنت إذا نام أفراد الوحدة الطبية العاملون معي، أخرج بمفردي في الليل وأجلس في مكان بحيث لا يشعر بي جنود الحراسة أتفكر في خلق السماوات والأرض فتشعر النفس بجلال الخالق وهيبة منه لا توصف ويقين به غير محدود.

أجاجًا هكذا؟ وكيف هيأ للكائنات الحية الموجودة به العيش وسط هذه الملوحة؟ أسئلة عديدة يسوق بعضها بعضًا.

وإذا بالإجابة تتردد في أعماق النفس: إنه الله - إنه الله.

قال صاحبه: يا لها من ليلة طيبة حقًا وما أقوى الإيمان وما أعمقه حينما يكون قائمًا على التفكر والتدبر لا على التقليد الأعمى. وما دام التفكر الحر الهادي يهدي للإيمان فلماذا يكفر الماديون بالله؟ أليس لهم من وسائل الإدراك والتفكير ما لسائر المؤمنين؟

أم جاءهم من العلم ما لم يأت غيرهم فكان دافعًا إلى كفرهم؟

قال الآخر: لك الله يا صاحبي.

نعم للماديون من وسائل التفكير والتدبر ما لسائر المؤمنين بالله ولكنهم عطلوها عن العلم في ميدانها الصحيح واتبعوا أهواءهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

والمعنى: ولقد خلقنا كثيرًا من الجن والإنس مآلهم النار يوم القيامة، لأن لهم قلوبًا لا ينفذون بها إلى الحق، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى دلائل القدرة، ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، أولئك كالبهائم لعدم انتفاعهم بما وهبهم الله من عقول للتدبر بل هم أضل منها؛ لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها، وهؤلاء لا يدركون ذلك، أولئك هم الكاملون في الغفلة[1].

أما مجرد الظن بأنهم على شيء من العلم يكون سندا لهم فقد أصبح من المعلوم للناس جميعًا أن الكفر والعلم لا يتفقان بأي حال من الأحوال وإليك الدليل:

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - الطبعة العشرون ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م.

يقول الدكتور «وولتر أوسكار لندبرج» عميد معهد هورمل منذ ١٩٤٩م مبينًا أثر العلم في دعوة المشتغلين به إلى الإيمان:

«للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره إذا استطاع أن يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله.

والمبادئ الأساسية التي تستند إليها الطريقة العلمية التي يُجري بحوثه على مقتضاها هي ذاتها دليل على وجود الله. وقد ينجح كثير من رجال العلم الذين لا يدركون هذه النقطة في كثير من أعمالهم كعلماء، ولا ينبغي أن نعتبر هذا النجاح مناقضًا للحقيقة التي أشرنا إليها. فالنجاح في دراسة العلوم يعتمد أساسًا على استخدام أسلوب معين ولا يتوقف على مدى تقدير العالم للمبادئ الأساسية التي يقوم عليها هذا الأسلوب».

قال صاحبه: إذًا ما سبب انتشار الكفر بالله عند الماديين؟

قال الآخر: لقد بين الدكتور (لدنبرج) أيضًا سبب ذلك واختصره في نقطتين:

الأولى: إن إنكار وجود الله يرجع في بعض الأحيان إلى ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الإلحاد ومحاربة الإيمان بالله بسبب تعارض هذه العقيدة مع مصالح هذه الجماعات أو مبادئها (ولعل واقع بعض الدول العربية والإسلامية التي اعتنقت هذا الفكر يومًا ما يؤكد ذلك) ومما يؤكد تلك السياسة الخبيثة قول (لينين) في كتابه (الدين) ما يلي:

اتخذ المؤتمر الشيوعي الدولي السادس المنعقد عام ١٩٢٨م القرار التالي:

«إن أحد المهام الملقاة على عاتق الثورة الثقافية التي تؤثر على الجماهير هو واجب العمل المنظم الدائب في محاربة الدين هذا الأفيون!! الذي يخدر الشعوب. ويتعين على الدولة في الوقت الذي تسمح فيه بحرية العبادة بعد إلغاء المركز الممتاز الذي كان يتمتع به الدين في القديم أن تقوم بدعاية ضد الدين بكل الوسائل التي تسيطر عليها الدولة وتعيد بناء العمل التربوي والتعليمي على أساس المادية العلمية».

تأمل جيدًا كلمة المادية.

الثانية: أن عقول الناس حتى ولو تحررت من الخوف فليس من السهل أن تتحرر من التعصب والأهواء، ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو على صورة الإنسان بدلًا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خُلق خليفة على الأرض وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبول. وأخيرًا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية ولا يحبون التفكير في هذه الموضوعات.

قال صاحبه: ولكننا حينما نعرض ذلك على مادي ملحد يثور في وجوهنا قائلًا: كيف تطلبون مني الإيمان بإله لا أراه؟ ألم تسمع السؤال الساذج: أين الله؟

قال الآخر: نعم يثور المادي الملحد في وجوهنا وسوف يثور لأنك تكشف سوءاته، وطبيعة الباطل أن يضيق ذرعًا بالحق، ويخرج من مجال النقاش الهادئ والمنطق المستقيم إلى مجال المهاترات والجدل العقيم.

ولتعلم يا صاحبي أن هذا المادي يؤمن بأشياء لا تقع تحت سمعه وبصره ويده، ألا يؤمن بالحياة التي تدب في أوصاله؟ ألا يؤمن بالفكر؟ ألا يؤمن بالتيار الكهربائي الذي يسري في أسلاك يراها ولا يراه؟ ألا يؤمن بالجاذبية؟ يؤمن بذلك كله وإن كان لا يدرك ذاته ولا ماهيته ولا يعرفها.

ولذلك فإننا نقول له من هذا المنطلق: ليس كل ما يغيب عن العين غير موجود ونحن نؤمن بالله لأننا عرفنا أثره ورأينا هذا الأثر بل تلك الآثار. أما ذاته جل وعلا فهي فوق إدراك العقل البشري لأنها ليست كذواتنا إنها الكمال المطلق المنزه عن كل نقص فالكمال خاصة ذاته والجمال الأتم ليس إلا لصفاته.

يقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد المدرسين الملحدين في فلسطين المحتلة عام النكبة ١٩٤٨م أراد أن يلقن تلاميذه درسًا في الإلحاد وإنكار وجود الله. فقال لتلاميذه: كل ما تراه العين فهو موجود وكل ما لا تراه فهو غير موجود.

قالوا: نعم.

فقال: هل ترون شباك الحجرة؟

قالوا: نعم.

قال: فالشباك موجود. هل ترون الباب؟

قالوا: نعم. قال: فالباب موجود. وهكذا ثم قال هل ترون الله؟

فقال التلاميذ ببراءة: لا.

فقال المجرم ونعوذ بالله مما قال: فالله غير موجود!!.

ولكن الله قيض له أحد التلاميذ الذي وقف وسأل زملاءه: هل ترون عقل المدرس؟ قالوا: لا.

فقال: فالمدرس لا عقل له. فاحمر وجه الخبيث خجلًا.

ولكن التلميذ أضاف: إن المدرس له عقل استطاع أن يميز بين كلامي فاحمر وجهه خجلًا، فهذا أثر من آثار عقله وإن كنا لا نراه، وهذه المخلوقات من حولنا من آثار قدرة الله لذلك نؤمن به وإن كنا لا نراه.

فأفحم الخبيث وأخزاه الله وصار أضحوكة للتلاميذ.

وصدق القائل:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أو كيف يجحدهُ الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وليعلم ذلك المادي المأفون أن عقله - بل عقل الإنسان بصفة عامة- الذي يعجز عن إدراك بعض حقائق الأشياء من حوله لهو أشد عجزا عن إدراك ذات خالق هذه الأشياء وبارئ هذا الكون كله، وأولى به وبغيره أن يكون رائدهم «**فكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا**»(١).

قال صاحبه: ما دمنا قد تحدثنا عن العقل والتفكير فاسمح لي أن أقول لك إن بعض الماديين يقولون: إن التفكير مادة يفرزها المخ!!

قال الآخر: لعلك تريد أن نتحدث عن مادية التفكير، وهذا سهم يصوبه القوم نحو صدور المؤمنين ولكنه يرتد إلى نحورهم بإذن الله بشيء قليل من العلم الذي يحسبه الماديون في خدمتهم، وقد تعرضنا له في صفحات سابقة ولكن إليك البيان مرة أخرى:

أولًا: أثبتت الأجهزة الدقيقة ومنها رسام المخ أنه لا يحدث أي تغيير في المخ مهما كان التفكير عميقا. يقول الفيلسوف «برجسون» في كتاب «الطاقة الروحية» -بعد أن لاحظ المرضى بالذاكرة والكلام: «**يتفق حيث يكون الفساد الدماغي خطيرًا وحيث تكون الذاكرة اللفظية مصابة إصابة بليغة أحيانًا أن ترجع الذاكرة فجأة وقد ظهر أنها فُقدت فجأة على أثر تنبيه قوي بعض الشيء كانفعال مثلًا، فهل كان يمكن ذلك لو أن الذاكرة موضوعة في المادة الدماغية التي فسدت أو تلفت؟**».

---

(١) ولقد أراد معلم البشرية ﷺ أن يريح العقل وينقذه من التردي في هوة من التفكير الذي لا طائل تحته، وذلك في حديثه الشريف: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله**». رواه أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن أبي شيبة في كتاب العرس بلفظ: «**تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في الله**» رواه الأصبهاني بهذا اللفظ.ولأبي نعيم في الحلية أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ «**خرج على أصحابه فقال: ما جمعكم؟ فقالوا اجتمعنا نذكر ربنا، ونتفكر في عظمته. فقال تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره**».كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني. مؤسسة الرسالة - بيروت -الطبعة الثانية - الجزء الأول. ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

ثم جاء التطور الجراحي من بعد «برجسون» فزادت تلك الحقيقة وضوحا على وضوح، فقد أجريت عمليات جراحية لبعض المرضى فإذا هم يذكرون ما لم يكونوا يذكرون ويفكرون أحسن مما كانوا يفكرون، فلو كانت خلايا المخ هي التي تفرز مادة التذكر لوجب أن تنقص الذاكرة بمقدار ما نقص من المادة المخية لا أن تزيد، ولو أن الفكر تفاعلات كيميائية لوجب أن ينقص بنقص المادة المتفاعلة لا أن تزيد.

ثانيًا: يقول «الكسيس كاريل» في كتابه القيِّم «الإنسان ذلك المجهول» يقول:

«ما هو الفكر؟ إنه ذلك الكائن العجيب الذي يعيش في أعماق ذاتنا دون أن يستهلك أي قدر قابل للقياس من النشاط الكيميائي. هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة؟ هل هو نتاج الخلايا العقلية كما ينتج البنكرياس «الأنسولين» وكما ينتج الكبد عصارة «الصفراء»؟ وهل يحتوي على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذي يدرسه الأطباء ويعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشاء المخي؟ أم يجب اعتباره كائنا غير مادي يوجد خارج الفراغ والزمن، خارج أبعاد العالم الكوني ويدخل في مخنا بطريقة مجهولة لنا».

وهكذا يا صاحبي يظهر لنا أن القول بأن التفكير مادة يفرزها المخ هو ضرب من التسول العلمي والشطط العقلي، ولعلك تلاحظ أنني استشهدت بأقوال علماء ليسوا مسلمين، لأن الملحدين الماديين حينما يسمعون ذلك يجلسون وكأنما على رؤوسهم الطير، أما إذا سمعوا قول الله تولوا وهم معرضون.

قال صاحبه: ولكننا نلاحظ أن فريقا منهم يتمادى في اللجاجة واللف والدوران على الرغم من ذلك كله.

قال الآخر: إن أمثال هؤلاء ينطبق عليهم قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

والمعنى: أما الجاهلون الذين فقدوا الاستعداد للإيمان إعراضًا منهم وعنادًا، فليس يستجيبوا لله فيستوي عندهم تخويفك لهم وعدم تخويفك.

هؤلاء قد تمكن الكفر منهم حتى كأن قلوبهم مختوم عليها بحجاب لا يدخلها غير ما فيها، وكأن أسماعهم مختوم عليها كذلك فلا تسمع وعده الحق، وكأن أبصارهم قد غشيها غطاء فهي لا تدرك آيات الله الدالة على الإيمان، ولذلك استحقوا أن ينالهم العذاب الشديد[1].

ولتعلم يا صاحبي أنه لا سبيل إلى إقناع من شذ طبعه وانحرف عقله وفسدت فطرته ومن الخير الإعراض عن هذا الصنف من البشر مع الحذر الشديد من سمومه والعمل على إبطال مفعولها.

قصة واقعية:

أما حينما يستقيم الطبع، ويهتدي العقل، وتزكو الفطرة فهناك تجدي المناقشة وتأتي بالثمرة الطيبة، واستمع إلى هذه القصة الواقعية التي يذكرها الدكتور «عبد العزيز عزام» ضمن كتابه «في الإسلام والعلم والحياة» يقول سيادته:

«تعرفت أثناء تجوالي في طوكيو بصاحب مصنع صغير للحديد، وبينما نحن في طريقنا لزيارة مصنعه تلبية لدعوته مررنا بساحة كبيرة يقع في أحد جوانبها خليج مملوء بالماء من جهة قصر الإمبراطور الذي يظهر قليلًا من خلف أشجار كثيفة وعالية وسط حديقة مترامية الأطراف وعلى مقربة من حافة الخليج وقف في اتجاه القصر عدد من الرجال والنساء بزيهم الوطني الشبيه بالقفطان ويسمونه: «كيمونو» والنساء يحملن فوق ظهورهن أولادهن مشدودين إلى أكتافهن برباط وقد جاءوا جميعًا قاصدين الحج إلى ساحة الإمبراطور، ونرى البعض منهم يصفقن بأيديهن ويترنمن بأناشيد، والرجال يضربون بعصى قصيرة على الدفوف نقرًا منتظمًا ويدعون دعاء غير مفهوم، أهو دعاء للإمبراطور أم هو طلب منه.

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم تقدم هذا المرجع.

وفي اليابان لا يزال هناك من يعتقد أن الإمبراطور هو «أبو اليابان» والكثيرون منهم يعتنقون البوذية، وأثناء سيرنا لفت صاحبي نظري إلى مكان غريب تحرق فيه جثث الموتى وعلمت أن الشعب كله يحرق جثث الموتى عدا البيت المالك.

كان للفرن منظر رهيب، وقال صاحبي: إن درجة حرارته تبلغ الألف درجة!! وتخرج الجثث منه رمادًا يوضع في أوعية من الخزف أو الصيني تذكارًا، ويا له من تذكار، نعم كل ما يبقى من الإنسان هو ما يشبه مادة السماد مكونًا من أملاح فوسفاتية وكربونية ونتراتية من المواد التي تستخدم في تغذية النبات وتسميد الأرض. هذا المصير هو لوجود الإنسان وجهاده المرير في هذه الحياة فهل هذا الجسم ثوب يخلعه ليلبس ثوب الحياة الأخرى أم ماذا؟

ومن غريب الصدف أو توافق الخواطر أن يسألني صاحبي في هذه الآونة: هل تعتقدون في بعث الموتى؟ فقلت: نعم. وهل تكون نهاية الحياة هكذا عبثًا أو هباء أو رمادًا. وقد نفى القرآن ذلك ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فضحك الصاحب واسترسل في ضحكه، ثم استدرك لحسن أدبه فاعتذر وقال: لا تؤاخذني فأنا أستبعد أن يكون ذلك البعث لاسيما أن هذه الأجسام ستتحول رمادًا يشبه السماد ثم يأتي يوم يتغذى به النبات الذي يأكله الحيوان، ومنها يتغذى الإنسان فتتداخل الأجسام بعضها في بعض مما يجعل أمر فصلها مستحيلًا وبالتالي يكون البعث أكثر استحالة.

فقلت له: إنك تقول ما قاله غيرك من قبل لنبينا محمد ﷺ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥، ٣٦]. وقلت له: إن الأمر هين لا كما تظن، وإذا انتهينا من الطواف بمصنعك فسأنبئك برأيي يقنعك.

ولما انتهينا من زيارة المصنع ولم تستغرق وقتًا طويلًا وكنت قد شاهدت قبله في جزيرة «كيوشو» في جنوب اليابان مصنعًا للحديد والصلب يغطي مساحة ٤٥٠ فدانًا،

ويعد أكبر مصانع الشرق الأقصى للفولاذ والصلب ويسمى (ياواتا) وللوصول إليه طريق مبني تحت ماء البحر تسير فيه السيارات فاتخذنا هذا الطريق عند زيارته، ثم عدنا بعد هذه الزيارة إلى الفندق ويسمى فندق طوكيو وهو على الطراز الغربي وبه صالونان كبيران أحدهما يسمى بالصالون الذهبي، والآخر بالصالون الفضي نسبة للون الفراش وعندما هممنا بالدخول في أحدهما وجدناه محجوزا لإلقاء محاضرة في المسيحية وفوق كل كرسي نسخة من الإنجيل، هنالك سألني صاحبي عن البعث فأخذت أشرح له ممهدًا للشرح بمقدمة.

فقلت له: إننا معشر الكيماويين لا نهتم بمظاهر المادة اهتمامنا بحقيقة تركيبها، فلابد أن نعرف العناصر المؤلفة للمادة وعدد الذرات من هذه العناصر وطريقة اتصال هذه الذرات ببعض، فلا يكفينا مثلا أن نعرف أيضا أن الماء هو سائل لا لون له ولا طعم ويغلي في درجة مائة بل لا بد أن نعرف أيضًا أن الماء هو سائل مكون من عنصرين أحدهما الأوكسجين والآخر هو الأيدروجين في صورة ذرتين من الأيدروجين وذرة واحدة من الأوكسجين، فأكثر ما يهم الكيماوي هو هذا التصميم الذري على غرار التصميم الهندسي وهو الذي يبين عدد الذرات التي تتركب منها المادة وكيف تتصل هذه الذرات ببعضها.

أما عن العناصر فهي منتشرة في كل مكان وهي التي تتحلل إلى ذرات، أما الذرات نفسها فلا تتغير ولا تتبدل وهي مصنوعة أزلًا وتستمر كذلك.

وأي مادة في الوجود هي عبارة عن ذرات متجمعة، وإذا تحللت صارت ذرات مفككة، والانفجار يفك الذرات ويفرقها عن بعضها، وهي لا تفنى ولا تتجدد، والكون كله يتكون من الذرات المختلفة فمن ثلاث ذرات مختلفة يتكون عالم لا حصر له من المواد، وهي عبارة عن أشكال مختلفة لأوضاع الذرات المحدودة العدد، وتقريبا للذهن نقول: إن الذرات بالنسبة للأجسام هي بمثابة اللبنات (أو الحجارة) بالنسبة للبيت فمن صنف الحجارة الواحد نعمل آلاف الأشكال من البيوت حسب التصميم الهندسي.

والتصميم بالنسبة للكيماوي هو المهم لبناء الجسم المعين لأن لكل مادة تصميما ذريا

معينًا، وزيادة في الإيضاح نقول إن مادة حمض (النتريك) مثلًا تتكون من الأوكسجين والنتروجين والأيدروجين، ويمكن الحصول على الحامض من ملح (شيلي) المستخرج من مناجم جنوب أمريكا، كما يمكن الحصول عليه بذاته ونفس صفاته من تثبيت أزوت الهواء: أي أن مصدر الذرات لا يهم وإنما المهم هو التصميم الذري.

والأساس هو معرفة التصميم الذري لحمض النتريك. وأوضح لك الموضوع بمثال آخر: إن الأطفال يستخدمون مكعبات خشبية للهو ذات أسطح مرسوم عليها صور مختلفة ويستطيعون أن يبنوا بها أشكالا مختلفة من البيوت تتفق وما معهم من الرسومات ويصح للطفل أن يبنيه ويهدمه عشرات المرات طالما كان أمامه التصميم (الرسم) الذي يحاكيه والقطع الخشبية ثابتة، وهدم البيت لا يفني قطع الخشب، كما أن تحلل الأجسام لا يفني ذراتها.

وبدأ صاحبي يتمتم معيدًا ما قاله آنفًا ثم عقب عليه قائلًا: ولكن فاتنا شيء. فقلت: وما هو؟ قال: إن الأجسام لا تتحرك بغير روح فما هي الروح؟ وما هو هذا السر الذي في الحب؟

فقلت له: أرأيت هذا التراب الذي يختلف من جثث الموتى لو زرعنا فيه أو في مثله من التربة حبة زرع أو نواة وروياها بالماء فإننا نشاهد بعد وقت أن النواة تنشق فتخرج منها شعيرات تتدلى إلى باطن الأرض وأخرى تصعد إلى جو السماء ثم يقوى الساق وتنتشر الأغصان والأوراق ثم تزهر ويأتي الثمر، وقد يبلغ ثمر النخلة الواحدة مئات الكيلو جرامات ثم تفرع، وهذه الفروع تنقل وتزرع وتنبت نخلًا آخر حتى تصير بستان نخيل.

كل هذا مصدره نواة واحدة لا تزن غير بضعة جرامات. فمن أين جاءت تلك الزيادة في الوزن؟ ليس هناك أدنى شك بأن التربة وحدها هي مصدر هذه الزيادة.

وهذا معناه أن المادة الترابية الجامدة الميتة تتحول أمام أعيننا إلى حي نام يتوالد ويتنفس ويثمر، فمن هو الذي يغير طبيعة الأشياء لهذه الكيفية المشاهدة؟

وإذا كان النبات قادرًا على أن يستفيد من التربة ويستمد منها غذاءه مباشرة وتتحول التربة إلى جسم حي، فإن الإنسان يعجز عن عمل ذلك مباشرة لأنه طفيلي يعيش على نتاج الآخرين من حيوان ونبات ويأخذ طعامه منها، وعلى ذلك يكون الإنسان هو أيضًا من التراب الذي تحول عن طريق النبات ثم الحيوان إلى طعام الإنسان الملائم، وهكذا تتحول التربة الجامدة إلى طعام يتكون منه الإنسان العاقل المدرك.

وإذا هلك الإنسان أو الحيوان أو النبات رجع إلى تراب أو إلى ما يسميه الكيماوي مواد غير عضوية من أملاح كالفوسفات والنترات والكربونات وغاز ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وهي المواد التي تتكون منها التربة. وهكذا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف جزء من الآية ٢٩].

فمن هذه التربة الجامدة الميتة تخرج جميع الأشكال والألوان من نبات وحيوان. والبذور توضع في التربة وتروى بماء واحد فيخرج منه نبات مختلف كل حسب بذرته، فبذرة العدس لا تخرج فولًا وبذرة الفول لا تخرج عدسًا وبذرة القمح لا تنتج شعيرًا ولا بذرة الشعير تنتج قمحًا.

فمن هو الذي علمها أن تختار بكل هذه الدقة الذرات اللازمة وتجمعها وتكون منها اللون الأحمر أو الأخضر أو الأصفر والرائحة الذكية أو النفاذة أو الكريهة والطعم الحلو أو المر أو الحامض؟

حقًا من العجيب أن يحدث ذلك ونمر به غافلين عما فيه من دلائل على القدرة والدقة والعقل الذي يجعل من مصدر واحد تلك الأصناف التي لا حصر لها وتختلف كل الاختلاف في ألوانها ومذاقها ورائحتها.

وإذا رجعنا إلى بذرة الحيوان نجدها هي الأخرى يخرج منها نفس الشيء فمن بذرة العصفور الكروان الأصفر المغرد لا يخرج إلا عصفورًا أصفر مغردًا، كما أن بذرة الغراب الأسود الناعق لا تخرج إلا غرابًا ناعقًا.

فمن الذي وضع في كل بذرة ونطفة هذا الاختصاص وهذه القدرة المميزة العاقلة المدبرة الصانعة التي تصنع كل شيء بميزان دقيق وبريشة الفنان التي تنسق الألوان وتربط كل شي بالآخر حتى لا يتعارض لحظة واحدة عمل عضو مع عضو آخر أو حركة جزء مع الآخر.

إن هذا كله لدليل على قدرة وحكمة وتصوير وتخطيط وعقل ينبثق من البذرة.

فمن أوجد في هذه النطف هذه القدرة على التنظيم والتخطيط البعيد الأمد والقدرة على التصوير بحكمة؟

أليس في ذلك وحده دليل كافٍ على قدرة فوق الوصف نسميها (الخالق)؟

قلت ذلك وصاحبي لا يتكلم فخشيت أن يكون قد مل الحديث، أو عنده ما يشغله فبادرته بطلب الاستئذان منه للراحة واستودعته الله.

وفي اليوم التالي جاءني على غير وعد سابق ودق الباب فقلت في نفسي عند رؤيته عسى أن يكون خيرًا، فقال: جئتك بنبأ عظيم، قلت: وما هو؟ قال: أسلمت.

وأغفت عيناي لحظة وأنا أردد الآية الكريمة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥].

وهكذا يا صاحبي ترى أن العقل السليم والفطرة الصافية يقودان إلى الحق وإلى طريق مستقيم».

وبعد، فإننا نسأل الماديين ومن على شاكلتهم في ثقة ويقين قائلين:

أيها الماديون هل عندكم من علم تخرجوه لنا؟... فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين..